٥ - الفقيه والشاعر

إن جوانب شخصية الغزالى متعددة . . فهو وإن لم يكن صاحب مذهب فى الفقة كأبى حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل والشافعى . . فإنه رغم انتمائه للمذهب الشافعى وتعمقه فيه ودراسته للفقه دراسة واعية متعمقة . . له اجتهادات فقهية كثيرة . . ولعل ابن السبكى فى إلقائه الضوء على الغزالى يعطى لنا صورة عن هذا الجانب العلمى من حياة الغزالى . .

له فى المذهب «يقصد الإمام الشافعى» البسيط . . والوسيط . . والوجيز . . والخلاصة . . وفى سائر العلوم كتابه إحياء علوم الدين . . وكتاب الأربعين . . وكتاب الأسماء الحسنى والمستصفى فى أصول الفقه . . والمنخول فى أصول الفقه . . ألفه فى حياة أستاذه إمام الحرمين . . وبداية الهداية . . والمآخذ فى الخلافيات . . وتحصين المآخذ . . وكيمياء السعادة بالفارسية . . والمنقذ من الضلال . . والبيان المنتحل فى الجدل . . وشفاء العليل فى بيان مسائل التعليل . . والاقتصاد فى الاعتقاد . . ومعيار النظر . . وبيان القولين للشافعى . . ومشكاة الأنوار . . والمشكاة فى الرد على الباطنية . . وتهافت الفلاسفة . . والمقاصد فى بيان اعتقاد الأوائل . . وهو مقاصد الفلاسفة وإلجام العوام عن علم الكلام . . والغاية القصوى . . وجواهر القرآن وبيان فضائح الإمامية . . والمختصر الأخير . . وكتاب ميزان العمل وكتاب أسرار معاملات الدين . .

والغزالى الفقيه نراه يتعمق ثلاثة اتجاهات:

- أصول الفقه.

- الفروع الفقهية.

- أسرار التشريع.

فإذا ما نظرنا إليه كعالم مجتهد .. فلا بد أن نعرف الغزالى كمجتهد .. والاجتهاد كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة بذل الفقيه وسعه فى استنباط الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية .. والأحكام العملية تقابل العقائد .. فالاجتهاد الفقهى خاص بالأحكام العملية.. والأدلة التفصيلية هى نصوص القرآن والسنة ومواضع الإجماع .. ويعرف بعض الفقهاء الاجتهاد فى الاصطلاح بأنه بذل الجهد وغاية الوسع .. إما فى استنباط الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية .. وإما فى تطبيقها..

ونسير مع الشيخ أبو زهرة فى دراسته القيمة عن الغزالى الفقيه:

وعلى هذا التعريف يكون الاجتهاد قسمين:

أحدهما خاص باستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها..

وثانيهما تطبيق العلل التى وصل إليها العلماء على أنها أساس الأحكام .. ويسمى ذلك تحقيق المناط .. والمجتهدون من هذا النوع الأخير هم علماء التخريج فى المذاهب .. عملهم هو تطبيق ما استنبطه السابقون بعلله .. وعن طريقها يمكن أن تعرف أحكام المسائل

التى لم يعرف لأصحاب الاجتهاد الأول رأى فيها . . فيتعرف الحكم على ضوء اجتهادهم . . وأصحاب كل مذهب يستخرجون أحكام ما يجد على ضوء ما قرره إمام هذا المذهب . .

والاجتهاد الأول هو الاجتهاد الكامل . . وقال بعض العلماء إنه لا يصلح أن يخلو منه عصر . . وعلى هذا أكثر الحنابلة . . وقد اتفق العلماء على أنه لا يصح أن يخلو عصر من العصور من الفرع الثانى من الاجتهاد . . وهو تطبيق علل الأحكام على كل الحوادث التى تكون منها . .

وكلام الغزالى فى الاجتهاد مقصور على النوع الأول . . ولذا عرف الاجتهاد بأنه بذل الفقيه وسعه فى طلب الحكم بأحكام الشريعة . .

ولا شك أن الغزالى . . رغم أنه اعتنق المذهب الشافعى . . فإنه تقبله بعد أن درسه دراسة متعمقة . . وكانت له إرادته الصائبة . . فهو فقيه متمكن من أصول دينه . . ومن أحكام الشرع الحنيف . . ملمًا بالأحاديث وأسانيدها . . عالمًا بقواعد الاجتهاد . . فاهمًا لما ينبغى أن يكون عليه الذى يتصدى للفتوى . . ملمًا بكتاب الله وسنة رسوله . . فاهمًا عن وعى وعمق . . ومن هنا كانت اجتهاداته الفقهية على درجة تتناسب مع اللقب الذى أطلق عليه . . وهو حجة الإسلام . .

وأنه على حد تعبير الشيخ محمد أبو زهرة :

« فهذا الفقيه الغزالى . . عميق النظر فى فقهه . . يجتهد ويتبع . . ولا يقلد ولا يبتدع . . وهو فيلسوف فى فقهه . . لا يجمد على تفكير . . فقد رأيناه فى أصول الفقة فيلسوفًا بين الفقهاء . . وفى فروعه محققًا يتتبع الدليل ولا يتبع الأشخاص . . يخالف إمامه الشافعى أو يوافقه عن بينة . . وفى الحق أنه فى الفقه أبين أثرًا منه فى عالم الكلام والفلسفة . . ولو لم يشتهر بالكلام والفلسفة لاشتهر بالفقه بين الفقهاء» . .

هذه صورة سريعة عن الغزالى الفقيه . . لأنه لو ركزنا عليه الدراسة كفقيه فهذا وحده يستغرق كتبًا عديدة . . ولكنها مجرد إشارة أصبع . . ونحن نعطى صورة عامة وشاملة عن هذا الإمام العظيم . .

* * * * *

ولا يمكن أن نتحدث عن شخصية الغزالى الفيلسوف . . والغزالى المتكلم . . والغزالى الفقيه . . والغزالى الصوفى دون أن نتحدث عنه كشاعر . . فكتاباته ككتابات عالم يكتب بأسلوب أديب . . وفى كتبه يستشهد كثيرًا بأبيات الشعر . . من الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه ، ولكن الغزالى الشاعر . . فهو أمر يكاد يجهله الكثيرون . . رغم أنه قد نسب إلى الغزالى قصيدتان . . إحداهما هائية مطلعها :

ما بال نفسى يظل شكواها

إلى الورى وهى ترتجى اللّه

وهى تتكون من أربعة وستين بيتًا . . والثانية تائية ومطلع هذه القصيدة . .

بنور تجلى وجه قدسك دهشتى

وفيك على أن لاخفا بك حيرتى

وعدد أبيات هذه القصيدة ٣١٦ بيتاً.

ولا أحد يعرف بالضبط هل هاتان القصيدتان من نظم الغزالى أو لا . . إلا أن القصيدة الثانية . . قام بتحليلها الدكتور زكى نجيب محمود فى دراسة عميقة . . وإن كنا نشك كما شك الدكتور زكى نجيب محمود فى نسبها للغزالى لتناقض بعض مضامينها مع فكر الغزالى وفلسفته . . ومع ذلك فهى تستحق الوقوف عند كلماتها . . أو عند بعض أبياتها على الأقل . . لنأخذ مثلاً من القصيدة:

فيا أقرب الأشياء من كل نظرة

لأبعد شىء أنت عن كل رؤية

ظهرت . . فلما أن بهرت تجليًا

بطنت بطونًا كاد يقضى بردتى

فأوقعت بين العقل والحس عند ما

خفيت خلافًا لا يزول بصلحة

إذا ما ادعى عقل وجودك منكرًا

على الحس ما نبغيه قال له اثبت

وذلك أن الحس ينفيك صورة

يراها ويرضى العقل فيك بحجة

فمن هاهنا منشا الخلاف ويصعب الـ

وفاق بخلف فى اقتضاء لحيلة

فإن قلت لم أبصرك فى كل صورة

أراها أحالت ذاك عين بصيرتى

وإن قلت إنى مبصر لك أنكرت

مقالى ولم تشهد بذلك مقلتى

تجليت لى حتى إذا ما ظهرت لى

خفيت خفاء دق عن كل فكرة

وإذا كان الغزالى فى تصوفه قد رفض فكرة الحلول أو الاتحاد أو الوصول . . من هنا نرى البعض ينكر نسبة هذه القصيدة إليه لما تحويه من هذه المعانى . . ومن أمثلة ذلك قوله:

فما فى فضل عنك يخطر فيه لى

سواك فوقتى فيك غير موقت

وقوله :

وهل أنا إلا أنت ذات ووحدة

وهل أنت إلا نفس عين هويتى

وقوله:

إذا غبت عنى كنت عندك حاضرًا

ومن عجب أن غيبتى فيك حضرتى

فيا باطنًا ألقاه فى كل ظاهر

ويا أولاً ما زال آخر فكرتى

. . . . . .

. . . . . .

ملأت جهاتى الست تلك فأنت لى

محيط وأيضًا أنت مركز نقطتى

فصرت إذا وجهت وجهى مصليًا

فرايض أوقاتى فنفسى كعبتى

فصار صيامى لى ونسكى وطاعتى

ونحرى وتعريفى وهجرى وعمرتى

وحول طوافى واجب وخلاله

استلامى لركنى فى مناسك حجتى

وذكرى وتسبيحى وحمدى وقربتى

لنفس وتقديس وصفو سريرتى

ولو هم منى خاطر بالتفاتة

لما كان لى إلا إلى تلقتى

ولو لم أؤد الفرض منى إلى لم

يصح بوجه لى ولم تبر ذمتى

وكنت على أن أوحد ظاهرًا

ففى باطنى قد دنت بالثنوية

ويرى الدكتور زكى نجيب محمود . . أن تلك كلها شواهد دالة على حلول أو اتحاد . . مما يشكك فى نسبها إلى الغزالى ، لكننا لا نستطيع أن نفهمها بالمعنى الذى يصل العارف بالمعروف فتزول دواعى الشك . . وها هو ذا الغزالى يصف طريقة التصوف إجمالاً . . ومن المنقذ من الضلال . .

فيذكر أن أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى اللَّه تعالى.. ومفتاحها .. استغراق القلب بالكلية بذكر اللَّه .. وآخرها الفناء بالكلية فى اللَّه .. فإذا كان أوله استغراق القلب .. وآخره الغناء .. ثم إذا كان ذلك لا يتناقض عنده حالة القرب التى يجعلها طابعًا لتصوفه .. كانت الشواهد التى أسلفناها لا تقضى بالضرورة ألا يكون الغزالى هو ناظم القصيدة .. ومن كلام الدكتور زكى نجيب محمود وتحليله لهذه القصيدة لا يستبعد أيضًا أن يكون هو نظامها حسب التعليل الذى ذكره..

ومن أجمل كلمات هذه القصيدة هو تصور الشاعر وهو يتأمل نفسه العليا يتودد إليها .. ليفر من نفسه الدنيا:

وقلت لها منى على بنظرة

أنال بها من حسن وجهك منيتى

ألم تعلمى ما حل بى منك من جوى

وكابدت من أشجان قلب ولوعة

فإن الجبال الشم وهى رواسخ

لو احتملت بعض الذى بى لدكت

فأحزان قلبى لا تجود بسلوة

وأجفان عينى لا تسح بدمعة

ولولا حنينى لم تحن مطية

ولولا نواحى لم تنح ورق أيكة

ولولا خطابى لم يقع عين عابد

على لما منى الصبابة أبلت

فلا ماء إلا بعض فيض مدامعى

ولا نار إلا دون أنفاس زفرتى

فقالت : بعينى ما لقيت وإنه

ليؤلم قلبى أن تشاك بشوكة

وإنى على ما فىَّ من صلف إليها

لراغبة فى الوصل أعظم رغبة

ولكن وشاة السوء فيك كثيرة

ولست على الواشين تمكن رؤيتى

وأنت فمغرى بالحسان وإننى

لأكره ما بى أن أرى وجه ضرتى

ومن لم يصنى صنت وجهى ببرقع

وصور فيه صورة دون صورتى

ليمتحن الخطاب لى أن يرونها

أيلهون عنى أم يتمنون خطبتى

وما هى إلا عيدة لى جميلة

تظن وما أفعالها لى بحيلة

فما كان إلا أن رأى الناس وجهها

لها فهاموا بها فى فج وجه ووجهة

وأروع ما فى هذه القصيدة . . تلك الكلمات التى يرى الشاعر فيها الكون كله . . وهو خاشع للّه جلت قدرته:

تأمل صلاة الشمس عند وقوفها

لدى الظهر فى وسط السماء بخشية

وإثباتها وقت الزوال بركعة

وإتمامها عند الغروب بسجدة

كذا جملة الأفلاك راكعة بما

جرت سجدة للّه فى كل طرفة

والقصيدة وتحليلها الرائع للدكتور زكى نجيب محمود . . تلقى ضوءًا آخر على شخصية الغزالى . . فهو صوفى . . والصوفى رقيق الإحساس والمشاعر . . ومن هنا من الممكن جدًا أن يكون شاعرًا . .

لأنه أقرب إلى الإمام الشاعر .. ومن هنا أيضًا نجد أن أعظم الأشعار.. وأرقها .. وأجملها .. هى تلك التى ترنم بها المحبون.. والصوفية محبون للّه .. إنه الحب فى أعلى مستوياته .. ولا نجد شعرًا أرق من شعراء الصوفية .. بل يكاد يكون معظم كبار الصوفية من الشعراء .. ابن العربى .. وابن الفارض.. ورابعة العدوية .. وغيرهم .. كلهم شعراء .. يترنمون فى الذات الإلهية بأجمل وأجود ما تجود به القرائح..

وهل يمكن أن نجد أجمل مثلاً من شعر ابن عربى عندما يترنم بحبه فيقول:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى

إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى

وقد صار قلبى قابلاً كل صورة

فمرعى لغزلان .. ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف

وألواح توراة .. ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنَّى توجهت

ركائبه .. فالحب دينى وإيمانى

ورابعة العدوية تعبر عن الحب بقولها:

أحبك حبين.. حب الهوى

وحبًا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى

فشغل بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له

فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاكا لى

ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ونقرأ من أشعار عمر بن الفارض مثلاً:

وقد علموا أنى قتيل لحاظها

فإن لها فى كل جارحة نصل

حديث قديم فى هواها وماله

كما علمت بعد وليس له قبل

وما لى مثل فى غرامى بها كما

غدت فتنة فى حسنها ما لها مثل

والأمثلة كثيرة عن جمال ورقة الشعر الصوفى الذى يهيم فى أودية الحب العميقة . . إنهم يشعرون بنشوة غريبة . . لو علم الملوك بما هم فيه من نعيم لحاربوهم عليه بالسيوف كما قال أحدهم . . إن الحب هو اللذة الكبرى . . هو السعادة الأبدية . . ولا يشعر به ولا يقدره إلا من يعانيه . . لأن التصوف تجربة ذاتية . . عن طريق التأمل والمعاناة والزهد والتقشف والمجاهدة يصل الصوفى إلى ما لا يخطر على بال أحد . .

إن من يسمع هذه القصيدة التى قالها الحلاج مثلاً . . فى الذات الإلهية . . لسوف يقف طويلاً أمام رقة المعانى . . وموسيقى الألفاظ . . ناهيك عما كان يشعر بها منشدها وهو غارق فى بحار حبه العميقة :

والله ما طلعت على شمس ولا غربت

إلا ووجهك مقرون بأنفاسى

ولا خلوت إلى قوم أحدثهم

إلا وأنت حديثى بين جُلاسى

ولا ذكرتك محزونًا ولا فرحًا

إلا وأنت بقلبى بين وسواس

ولا هممت بشرب الماء من عطش

إلا رأيت خيالاً منك فى الكاس

ولو قدرت على الإتيان جئتكم

سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراس

مالى وللناس كم يلومونني سفهًا

دينى لنفسى ودين الناس للناس

ومهما اختلفت اتجاهات رجال الصوفية . . فإن الحب الإلهى . . هو منتهى أمل كل مريد . . إنه يريد أن يصل إلى اللَّه . . والوصول إلى اللَّه لا بد أن ينتهى إلى حب . .

وكيف لا يكون هذا منتهى آمالهم . . والرسول الكريم ﷺ يقول:

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما»؟

إذن . . ليس من المستبعد أن يكون الإمام الغزالى بجانب كل الصفات التى عرفناها عنه شاعرًا أيضًا . .

ومهما يكن من شيء . . فلقد ترك الغزالى مركزًا عظيمًا ممدودًا تعدى حدود زمانه إلى أجيال مختلفة . . وأغلب الظن . . أن سيرة حياته وفكره ستظل إشعاعًا يهدى الناس إلى الطريق القويم . . كلما ذكر الفكر وكلما ذكرت الفلسفة . . وكلما ذكر التصوف ؛ لأنه كان علمًا فى كل هذه الميادين . .

* * * * *